ثورة 25 يناير.. إطلالة استراتيجية على الأبعاد الداخلية والخارجية

التشريح الأولي لثورة الشباب في مصر
الثورة المضادة والدهاء السياسي
أهم بحث علمي عن الثورة المصرية حتى الآن

الكتاب: ثورة 25 يناير
المؤلف: دكتور محمد نعمان جلال
دار النشر: مطبعة فريد عطية
سنة النشر 2011

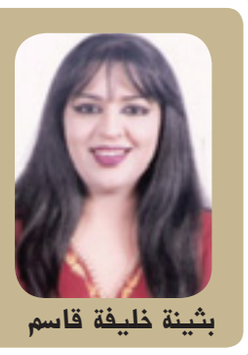

بثينة خليفة قاسم

"لقد كان تراجع مصر في دورها الدولي والإقليمي في عهد النظام السابق هو انعكاس لتراجع مقومات القوة الوطنية الداخلية في الصناعة والثقافة والتعليم والمعرفة،وسيطرة قلة شوهت الإعلام،واغتالت السياسة،وقامت بعملية إخصاء مجتمعي للقوى السياسية،ونهبت الاقتصاد،وسرقت الأحلام في مختلف القطاعات،حتى إذا ضاقت مصر وشعبها بذلك النظام،وكادت أن تبلغ القلوب الحناجر،انفجرت الثورة بقوة وعنف وأحدثت التغيير الأول في الإطاحة برؤوس النظام السابق،وأخذت تتطلع للتخلص من أذنابه ولم يكن ذلك بالعمل السهل،أو اليسير،بل واجهت تحديات عاتية وماتزال هذه الأذناب الواضحة والخفية تعمل جهرا وسرا،وتعبث بالأمن والاستقرار،وتراوغ في الاعتراف بالأخطاء،كما تعمل بأسلوب ماكر مخادع حتى يلبس بعضها رداء بعض شكلا ومزايدة وهو يفكر بعقلية قديمة ومتخلفة،ويسعى لضرب الثورة في مقتل،ولكن لا يخامرني أدنى شك في أنه في النهاية سوف تكسب الثورة وقواها المعركة،حتى وإن كسب أعداؤها أو بعضهم جولة أو أكثر في مرحلة من مراحل الانتقال،فإن تاريخ الثورات في العالم هو تاريخ الانتصار النهائي والانتقال لمرحلة نوعية متقدمة".(دكتور محمد نعمان جلال)

في كتابه الجديد الذي صدر تحت عنوان:ثورة 25 يناير : إطلالة استراتيجية على الأبعاد الداخلية والخارجية،يقدم الدكتور محمد نعمان جلال،الباحث في الدراسات الاستراتيجية الدولية،بحثا في فلسفة العمل الوطني لبناء مصر المستقبل،عبر تحليل أحداث ثورة 25 يناير وقواها الحقيقية التي يجب أن يستمر تلاحمها.

الدكتور محمد نعمان جلال،كمواطن مصري يعشق تراب مصر،يقدم في هذا الكتاب سياحة فكرية وتأملات من خلال معايشته لمعاناة أبناء شعبه وشعوره بالفخر لقيام هذه الثورة التي حطمت أصناما بشرية وأعلت كرامة المواطن وعملت على إخضاع الحاكم لإرادة الشعب الحقيقية.

في هذا الكتاب يقدم المؤلف تحليلا علميا لثورة 25 يناير وأحوال مصر قبلها وفي ظلها والثورة المضادة وصورها ومفهوم الوحدة الوطنية الذي هو ركيزة التقدم في كل مجتمع،وينتقل من الإطار الداخلي إلى استراتيجية السياسة الخارجية المصرية وأولوياتها كما يراها بحكم خبرته العملية كدبلوماسي على مدى 38 عاما،وكباحث متفرغ في الدراسات الاستراتيجية الدولية على مدى عشر سنوات.

الثورة علامة فاصلة في التاريخ الحديث

يبين المؤلف أن ثورة 25 يناير في مصر بمثابة علامة فاصلة في تاريخ مصر الحديث من ثلاث زوايا،الأولى:أنها وضعت حدا نهائيا لثلاث ظواهر شاذة في تاريخ مصر الحديث:

أولها:

ظاهرة التوريث في النظام الجمهوري،وثانيها:ظاهرة الفساد البالغ الوحشية الذي طال نظام الحكم من أعلاه إلى أدناه،وثالثها:ظاهرة خيانة الأمانة الوطنية والتي تتمثل في إضعاف الدولة وقوتها العسكرية الشاملة وبخاصة صناعتها العسكرية،وتحويلها إلى دولة تسير في ركاب القوى الإقليمية والدولية.

الثانية:

أنها وضعت نقطة البداية لما يمكن أن نطلق عليه الجمهورية الثانية ،حيث قامت الجمهورية الأولى مع ثورة يوليو في عام 1952،وهي جمهورية سيطر عليها العسكريون في مناصب عديدة،مثل المحافظين ورؤساء مجالس الشركات وكثير من قطاعات الدولة،وكان ذلك منطقيا في عام 1952 ،ولكنه لم يعد مقبولا في الفترات اللاحقة،لأن الدولة كان يجب أن تتحول إلى دولة مدنية حديثة ، أما القطاعات التي تولاها مدنيون فكانت محدودة، وأصحابهامحسوبين على أصحاب النفوذ الأكبر، كما شهدت الجمهورية الأولى، وخاصة في الأعوام الثلاثة الأخيرة ،طغيان مؤسسة الرئاسة على أجهزة الدولة، وضعف القضاء، وضعف البرلمان، وضعف الصحافة، وضعف الأحزاب، وضعف المؤسسة الدينية الرسمية ممثلة في الأزهر. فضلاً عن ضعف اقتصاد الدولة وتراجع الطبقة المتوسطة نتيجة سياسة الملتزم التي قام بها وزير المالية الأسبق بامتياز تفوق فيه على من سبقوه حيث ساد مفهوم الملتزم في القرون الوسطي .

الثالثة:

إنها وضعت حداً لتزاوج السلطة والثورة، وأيضاً لتزوير إرادة الشعب عبر الانتخابات الوهمية التي كانت تديرها عملياً أجهزة الأمنوالإدارة المحلية.بتوجيهات من لجنة السياسات.

وهكذا سيطر على مصر حالة من الضعف والإنهاك العام، وهذه الحالة كادت تنذر بتحول مصر إلى دولة فاشلة، بعد أن تحولت إلى مجتمع مهمش من الفقر والجهل والمرض، حيث بلغ من هم دون خط الفقر ما يتراوح بين 45–40 %،وانتشرت الأمية الأبجدية إلى 40 %، والأمية الثقافية إلى أكثر من ذلك. أما المرض فقد ضاعف من كارثته ثلاث سياسات: سياسة التأمين الصحي الفاشلة،وسياسة الأدوية والمعدات الطبية غير الصالحة في الصفقات المشبوهة، وسياسة المبيدات المسرطنة، أضف لذلك نتيجة سياسة التلوث البيئي، والتلوث السمعي.

والتلوث السياسي، والتلوث الإعلامي.بل والتلوث الأخلاقي كما عبرت عنه كثير من المسلسلات التليفزيونية والتي كانت تتحدث عن ذلك واعتقدنا أنه تمثيل ثم كشفت ثورة 25 يناير أنها كانت حقائق أو شبه حقائق تعيشها بعض أعضاء النخبة الحاكمة و بعض رجال إعمالها.

ويقول الكاتب أنه في هذا الإطار كانت بوادر الثورة وإرهاصاتها واضحة لكثير من المحللين،وأشار إلي ثلاثة أنواع من التقارير أولها من المجلس القومي لحقوق الإنسان في الفترة من 2003 والثاني من المنظمات الحقوقية ومنظمات المجتمع المدني المصري وثالثها من المنظمات الدولية الحقوقية والاقتصاديةوالسياسية/ ولكن المسئولين السياسيين والتنفيذيين أصاب معظمهم حالة من فقدان البصر،وفقدان السمع، وفقدان الإدراك، يتجلى ذلك في أبشع مظاهره في وهم نجاح الحزب الوطني بقيادة حملة انتخابية ناجحة بإعداد متميز في انتخابات عام2010م، والتي روج لها صحفيون وأساتذة جامعات، وتناسى الجميع أن الذي نجح في تلك الانتخابات المزيفة ليس الحزب الوطني، وإنما أجهزة القمع الأمني والخداع السياسي والوهم الذي عاشت فيه لجنة التوريث المسماة لجنة السياسات.

الثورات يصنعها العظماء ويقوم بها المغامرون ويستفيد بها الجبناء

وبعد أن قامت الثورة المصرية وواجه النظام المصري مصيره المستحق،يعبر كاتبنا عن مخاوفه من إضاعة هذه الفرصة التاريخية ويحذر من التفاف قوى النفاق حول الثورة،وتحويل قادتها الكثيرين ،خاصة من جيل الشباب إلى آلهة صغرى أو فراعين جدد،أو انقضاض قوى قديمة حديثة على آمال الشعب وأحلامه،أو انقضاض قوى لا تدرك البعد التاريخي ومعنى القوة وجذب مصر لسياسات إقليمية أو عنترية تحت مقولة الدور المصري الإقليمي والدولي،وهي مقولات حق يراد بها باطل،كما رفع بعض المسلمين المصاحف في واقعة التحكيم بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان،وأدى ذلك للخديعة الكبرى،والنكبة العظمى في التاريخ الإسلامي.

ويقول الكاتب أن الدور ينبع من القوة،وأن هذه تعتمد على ركائز معروفة،اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية وتكنولوجية،وفاقد الشيء لا يعطيه،فإذا كانت مصر الحديثة قد تعرضت للنهب المنظم من أناس بلا ضمير فلا يتوقع أن تنطلق للقيام بدور قبل أن تعد له عدته،حتى وإن كان هذا الدور مطلوبا وضروريا.

ويؤكد الكاتب أنه بمثابة انتحار سياسي وكارثة وطنية أن يتم استلاب مصر مجددا تحت مقولة الدور الإقليمي أو العربي أو الدولي،في حين أنها ما زالت في غرفة الإنعاش،ولكن عندما تسترد عافيتها وتمتلك قوتها وإرادتها،فإنها تستطيع القيام بدورها الحقيقي بصورة إيجابية وسليمة لمصلحة الإقليم والأشقاء والأصدقاء ولمصلحة شعب مصر ومحيطه الاقليمي والعربي والاسلامي والافريقي.

ويمضي الكاتب قائلا أن الضعيف لا يمكن أن يكون له دور،وأن التنين الصيني ظل كامنا ومازال يبني عناصر قوته،ولا يستجيب لطموحات مثقفين يبحثون هم أنفسهم عن دور ،ويحلمون بواقع لم يتحقق،وأمريكا التي ظلت حوالي مائة وخمسين عاما منذ قيامها بثورتها التحررية حتى بنت قوتها ونهضتها،ثم انطلقت تبحث عن دور وتقوم به،فالحكمة والنصيحة العاقلة التي تقدمها مضيفة الطائرة للركاب عندما تواجه الطائرة عاصفة جوية أن يساعد الراكب نفسه أولا،ثم يساعد أطفاله والقريبين منه بعد ذلك.

البعد الاستراتيجي ومتطلبات المرحلة القادمة

يتناول الكاتب البعدالاستراتيجي للثورة والمتطلبات الضرورية من أجل نجاحها،ويحدد ضرورات ثلاث من أجل ذلك،ويقول أن الضرورة الأولى هي بناء مؤسسات على أسس راسخة وعدم تغييرها لمصلحة فرد أو طبقة،والضرورة الثانية هي أن يظل المجتمع تسوده الطبقات المتحركة ،وليس الجمود الطبقي،أي مفهوم الحركية الاجتماعية،وان يصبح الانتقال من طائفة إلى أخرى نتيجة المعرفة والمهارة والتعليم،وليس نتيجة النفاق والمداهنة او الانتماء الأسري أو الانتماء إلى شلة أو جماعة أو طائفة.والضرورة الثالثة لنجاح الثورة ونجاح أي ثورة،هي تحولها إلى قوة مجتمعية،بمعنى رفعها شعارات،وتنفيذ ذلك بما يحقق مكسبا أو عائدا ملموسا لكل فئة من فئات المجتمع،أما إذا تحولت الثورة إلى مفهوم الطبقة فقط،أو الدين فقط أو الطائفة فقط،فإنها تؤدي إلى الصراع الطبقي أو الطائفي أو الديني،وتفقد كونها حركة مجتمعية.

ويقول الكاتب أن بعض الثورات في منطقة الشرق الأوسط تحولت إلى حركة طائفية سياسية،وأن الفكر الطائفي بلغ بها أن وضعت في دستورها أن الدولة دينها كذا وطائفتها كذا،وهذا تحول ليس لمصلحة الدولة،بل لمصلحة الطائفة التي تنتهي لتكون لمصلحة الفرد،وهذا هو أكبر مزالق الحركة الثورية،بل أكبر كوارثها،فعندما رفع ماو تسي تونج مفهوم طبقة البروليتاريا ،كما رفعه ستالين،تحولت الدولة ليس لمصلحة الطبقة،بل لمصلحة الزعيم الأوحد،وعندما وضعت إيران الإسلامية في دستورها مبدأ أن دين الدولة هو الإسلام الشيعي الإثنى عشري تحولت لمبدأ ولاية الفقيه الذي أصبح الحاكم الفرد للدولة وأهملت،بل اضطهد غير الشيعة الإثنى عشرية،ومن ثم عانت الطبقة كما عانى المجتمع والأقليات من الظلم والاضطهاد.في حين أن المفهوم الأعمق للثورة هو أنها حركة تغيير جذري في المجتمع لمصلحة المجتمع بكافة طوائفه وطبقاته وقواه.

الهدم يؤدي إلى كوارث والبناء الفوري لا يمكن تحقيقه

ويخلص الكاتب إلى أن الثورات في المنطقة العربية تواجه أسوأ أنواع التحديات،وان الثورة المصرية،رغم كونها الأكثر نقاءا وشفافية ،إلا أنها واجهت تحديات مندسة من قوى وأحزاب هامشية كان لها بريقها في الماضي ولكنها لا قواعد لها في الحاضر ودفعت القوى الثورية للمطالبة بالهدم الفوري والبناء الفوري،من حكومة انتقالية،وهذا هو التناقض الجوهري،فالهدم يؤدي إلى كوارث،والبناء الفوري لا يمكن تحقيقه،لأن الجديد يجب أن يخرج من أحشاء القديم الذي هو نقيض له،وهو خروج ليس سهلا ،ومن هنا تأتي أهمية المرحلة الانتقالية،وهي ليست مثالية،ولكنها ضرورية لحدوث الانتقال السلس.

وضرب الكاتب مثالا بالتجربة الاسلامية الصحيحة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وبقيام هذه التجربة على ركائز ثلاث،وهي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،وإعلاء مفهوم المواطنة والحقوق المتساوية للجميع،وإعلاء مفهوم التسامح والاعتدال،كما حدث عند فتح مكة حيث صفح النبي عن خصومه،ونسى كل ما وقع منهم من اضطهاد له.

ولكن بعض الثوريين المحدثين في عالمنا العربي اليوم – كمايصفهم الكاتب – تسيطر عليهم ثلاثة أنواع من الشهوات:شهوة الهدم أكثر من شهوة البناء،وشهوة الانتقام أكثر من شهوة التسامح،وشهوة القبلية والطائفة والدين أكثر من شهوة الوطنية والوطن.

ويطالب الكاتب الثوريين في مصر خاصة وفي العالم العربي عامة بقليل من العقلانية،ويقول أنه لم يكن هناك ثائرا في التاريخ مثل محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام الذي جاء بدين جديد انتشر في أنحاء العالم.

ويقول أن الصراع الديني الطائفي المذهبي دمر كشمير كما دمر قبرص،والصراع الديني والسياسي الحزبي دمر فلسطين.

إن مهمة المواطن وبخاصة المثقف، كما قرر الكاتب ،هي الدعوة للوحدة الوطنية ولتطوير المجتمع وليس تدميره،وأن مصر بعد 25 يناير تعاني من نقص الأمن الذي تحدث عنه" توماس هوبز"لاختفاء الشرطة بسبب خوفهم من اضطهاد الثوار لهم،أو بالأصح الثوار المزيفين المغرضين لهم،والمجتمع يعاني من ضعف الإرادة في أجهزة الدولة للرغبة في تدمير كل ما هو سابق على الثورة،حتى وإن كان صالحا.

ويخاطب الكاتب الشعب المصري قائلا أنه ليس كل وزير من عهد مبارك يصبح فاسدا،وليس كل رجل أعمال يصبح منحرفا،وليس كل ضابط شرطة قام بتعذيب الناس وقمعهم،بالتأكيد هناك وزراء فاسدون ،ورجال أعمال منحرفون وسارقون،ورجال شرطة اضطهدوا وعذبوا،ولكن ليس الجميع.

وحذر الكاتب من الانحراف الثوري،وقال أن مفهوم ثورة الغضب يجب أن يكون مرحلة أولى قصيرة ويجب أن يتلوه مفهوم ثورة البناء،لأن الغاضب طوال الوقت لا يحقق شيئا لمجتمعه ولا لنفسه،وأن مفهوم البناء وليس الغضب هو أساس التقدم.

في الختام

هذا الكتاب يقدم جرعة متكاملة من التحليل السياسي للثورة المصرية من حيث أسبابها ونتائجها،مع نظرة استراتيجية حول ما ينبغي أن تكون عليه الثورة لكي تحقق أهدافها في البناء والتقدم ،بعد أن حققت أهدافها في إزاحة النظام السابق،وهو جدير بأن يقرأه المختصون والدارسون،والكتاب وجميع المهتمين بالشئون العربية.

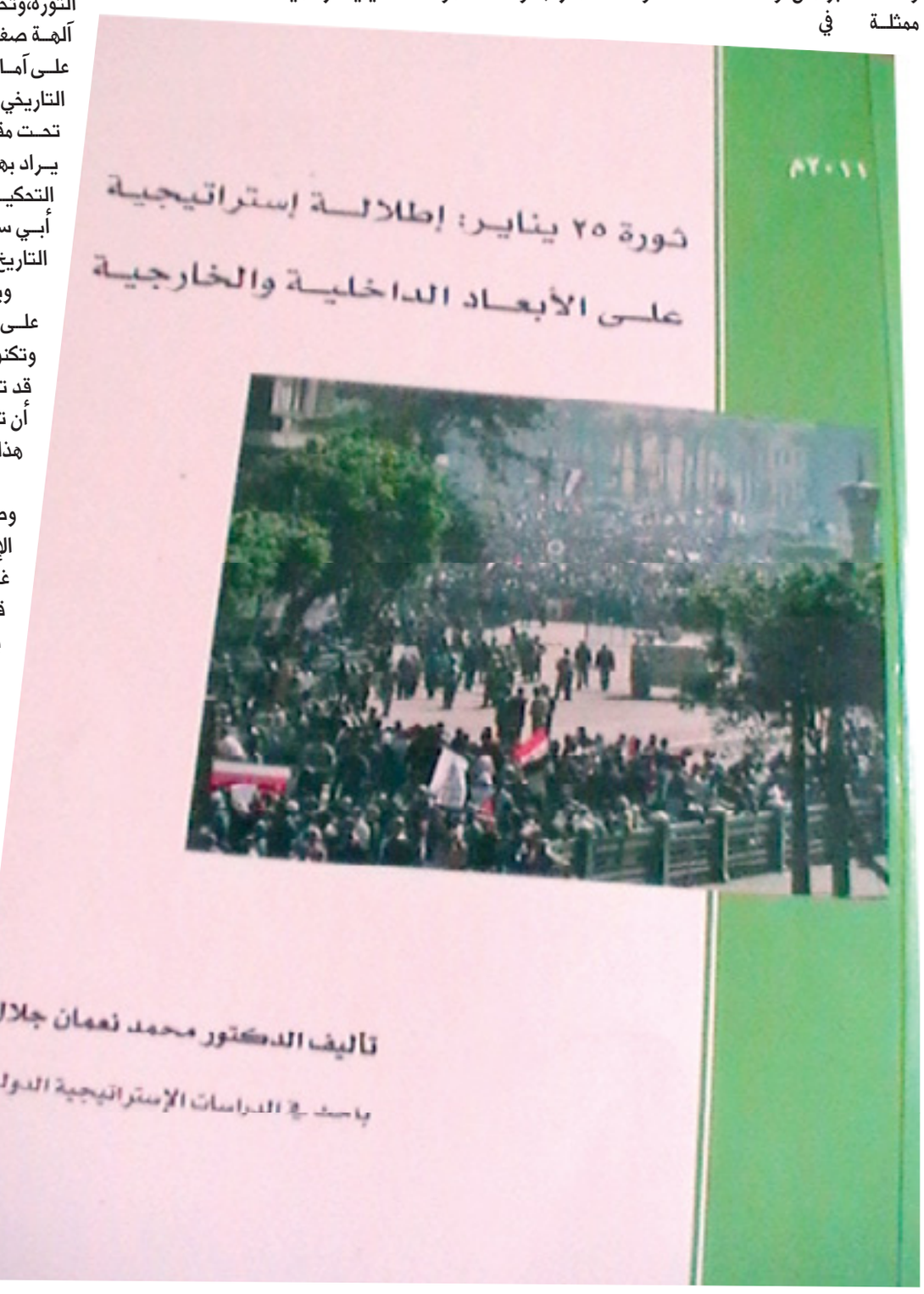

نبذة عن المؤلف:

الدكتور محمد نعمان جلال،باحث مصري في الدراسات الاستراتيجية،ودبلوماسي وكاتب أكاديمي،وكاتب في الصحافة المصرية والعربية،وله أكثر من 40 مؤلفا باللغتين العربية والانجليزية،بالإضافة إلى مئات المقالات الصحفية عن مصر وسياستها الخارجية،وعن الإسلام والعروبة،وعن القوى الصاعدة،وفي مقدمتها الصين،وعن الحوار الحضاري والسياسي.